الرسول صلى الله عليه وسلم
في كتابات المستشرقين

نذير حمدان

طبعة ثانية
مزيدة ومنقحة

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

حقوق الطبع محفوظة

دار المنارة
للنشر والتوزيع جدة: ٢١٤٣١، ص. ب.: ١٢٥٠.
هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢ - تلكس: ٤٠٣٠٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة
الطبعة الثانية

أشرت في (تمهيد الطبعة الأولى) إلى أهمية النبوة، وتنامي المكتبة المحمدية في العالم، وشرف الكتابة في السيرة العطرة، وفرض البحث الموضوعي نفسه على الفكر الإنساني من غير استجداء الثناء واستدرار العطف والمديح.

وأزيد هنا: أن العالمية، والنبوة، والقيادة العامة الفذة، والصفات الشخصية والاجتماعية الأسوة، كانت دعائم (القضية المحمدية) في تناول المستشرقين والمستغربين على السواء.

ومن خلال هذا التناول ذي النوعية المغرضة عموماً لا بد من إلقاء الضوء على (الأصل والفروع) في المواقف الفكرية الاستشراقية من شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام، إيضاحاً لما أشرت إليه في (التمهيد) السابق.

١ - النبوة أصل وأساس:

إن شغل الفكر العالمي بدراسة الشخصية المحمدية، وحديث المثقفين وإنصافهم عنها في فترة تزيد على أربعة قرون، وفي إنتاج فكري (ألفي)، وبسائر اللغات، الحية وغيرها، يؤكد على أن (السيرة) متميزة بخصائص وصفات لا توجد في سائر الأعلام والشخصيات العالمية.

كما يدفع أمثالهم إلى مزيد من الدأب والجهد في تتبع جوانب جديدة وإبرازها كموضوع فكري خالد ومتجدد العطاء، يهون من أجله الترحال الشاق

إلى أماكن من بيئته عليه السلام، بقدر ما تهون الأموال والجهود.

بعض المستشرقين ينصف في الحكم على بعض الخصائص والصفات ويقدرها قدرها، ومعظمهم أو جلهم ينحازون ويزيفون، فلا يزيده قداسة إنصاف هؤلاء، ولا ينقص من قدره تحيز أولئك وتزييفاتهم.

والمسلمون الواعون يحترمون الكلمة الصادقة، والفكرة المجردة، والبحث الموضوعي، وهم أمناء على ما يرونه ويعقلونه من لدن الآباء والأجداد إلى الأبناء والأحفاد. فبعض المستشرقين يشيد بعبقرية (محمد) على الطريقة المادية الغربية، وآخرون يبهرون بالإنجازات الاجتماعية والسياسية، وأبعادها الزمانية والمكانية، كما يتحدثون عن سياسي واجتماعي ومصلح عظيم، ضمن (الأبطال) و(عباقرة العالم).

ويضفي قسم ثالث عمقاً في الدراسة وغوصاً في البحث، وتقصياً للمزايا والثمرات بأكثر مما يسوقونه عن عظمائهم.

فهو في طليعة العباقرة والسياسيين والمصلحين المبدعين في العصور الوسطى والحديثة من غير أن يربطوا ذلك بنبوته، أو يقيموا أي وزن لرسالته.

بل وربما كان كثير من تمجيداتهم الوصفية، وحماستهم الدرسية من أجل أن يخفوا الحقيقة الأولى، والقضية الكبرى في حياته: أنه كان من أنبياء الله وخاتم رسله المصطفين. ومن هنا تنزلق بعض الأفهام، وتستدرج بعض العقول من المسلمين ومن غير المسلمين.

فمن المستشرقين النصارى من كتب عن مجالات عبقريته، إلى جانب آخرين كتبوا عن (مروقه) عن المسيحية القديمة إلى النسطورية، كما فعل معظم النصارى الكاثوليك الذين تطرفوا، وأحياناً أفحشوا في القول، فغلب عليهم التهجم والتطرف، ونال منهم التعصب للأفكار (المسبقة) حتى أضحى زملاؤهم يشكون في (القيمة) العلمية والتاريخية والتحليلية التي وصلت استنتاجاتهم إليها، وردوها كلها أو بعضها.

من هؤلاء: يوليوس فلهاوزن، ورنيان، ولامانس، ولوي ماسينون وغيرهم.

ومن المستشرقين اليهود من كتب عن آثاره العالمية، إلى جانب آخرين كتبوا عن تأثره بأسفار التوراة وبيهود المدينة: من أسلم منهم ومن بقي على يهوديته كما فعل جولد تسهير، وفنسك، وشاخت، وغيرهم.

ومن هؤلاء وأولئك من أبرز له الفضائل الإنسانية والنبوية أيضاً، مثل هاملتون جب، كبير المستشرقين الإنكليز المعاصرين في كتابه (المحمدية).

أما الفضائل الإنسانية فهي ليست مجال ريب أو تردد، وأما الفضائل النبوية فإنها (استبطانية داخلية) ظهر بسببها أعظم أثر مقدس هو القرآن الكريم، فهي نبوة من (وحي النفس) و(خواطر الذات) نابعة من صفاء الشخصية المحمدية وحرصها على إصلاح العرب بدوافع الإشفاق والغيرة عليهم، حتى تبلورت الإيحاءات والخواطر إلى (رسالة) وأصبح محمد بعدها (رسولاً) بعد أن كان (نبياً)، ثم سمى نفسه، أو سماه أصحابه، أو أحسّ أنه سماه ربه نبياً ورسولاً، وتردد ذلك في القرآن والسنّة وعلى ألسنة الناس.

والدكتور محمد البهي في كتابه: (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار) دافع عن زيوف هذه الشبهة المبطنة التي حاولت أن (توفق) بين النفسية المحمدية وبين دعواتها ومصداقية الناس لها، كما حاولت دراسات إسلامية أخرى أن تظهر استقلالية الوحي مادة وأسلوباً، في السر والجهر، وفي النفس والمجتمع، ضمن الحقائق العلمية والاجتماعية والوثائق التاريخية مثل ما فعله العديدون وفي مقدمتهم مالك بن بني في كتابه (الظاهرة القرآنية).

إن موسى كليم الله وعيسى كلمته وقبلهما إبراهيم خليله، وبين القرون المتطاولة تعاقب الأنبياء والرسل بالكتب والصحف والدعوات، ونشروا ذلك بين الناس، فآمن بهم من آمن، وكفر من كفر، على المستوى الظني أو دونه

فيما كان بين أيديهم من النصوص التاريخية والمقدسة السابقة، ودخل هؤلاء المستشرقون في إطار التصديق التاريخي من غير توثيق، ولا اطمئنان علمي، وأنكرت قلة منهم تلك النصوص والمقدسات لأنها وصلت من طريق غير منهجي ثابت.

وأعلن محمد (الرسول) تأييده وإيمانه بجميع إخوانه الأنبياء السابقين، وصح عنه أنه (اللبنة) الأخيرة في بناء النبوات، كما صحح للناس انحرافاتهم فيهم ووثق سيرهم، ووسم حقائق النبوة بسمات الصراحة والصدق والثبات، وقال للناس: هذا هو الإيمان الرحب السليم الذي لا يتعارض في أصوله ولا في مصدريته.

إن ما دعا إليه الرسول من العقيدة والعبادة والأخلاق والنظام يفرض نفسه على الفكر الإنساني المنصف ويدفعه إلى الإقرار بنبوة محمد مع وثاقه المصدر، وصحة المنهج، وصدق التاريخ.

والإقرار المقنع هو سبيل الإسلام في قلوب بعضهم التي رضيت بمحمد نبياً ورسولاً. ولا أدل على ذلك من أن الدراسات (المحمدية) المختلفة، والمؤتمرات التشريعية المعاصرة، والمدارس الفكرية العالمية لم تكن ثمرات سيد البشر وصفوة الخلق وحسب وإنما هي داعمة الجانب النبوي فيه سواء أعلنوا عن ذلك، أو أخفوه، أو رفضوه، وما تزال قضايا السلام، والاقتصاد، وأنظمة الحكم، والمعضلات الاجتماعية، والمشكلات التربوية، تتلمس الحلول المنصفة، والعلاجات الناجعة العامة، وتتعثر في متناقضات فكرية وواقعية ثم تعلن تخليها عن نظامها أو تقاربها مع أنظمة أخرى، وهي بدورها غير مطمئنة إلى صلاحيتها في المستقبل القريب والبعيد، وفي زحمة هذه التيارات العالمية تبرز الدعوة المحمدية من نبأ القرون الأولى معجزة الحل الإنساني.

وهذا الكتاب ـ مثل بعض المؤلفات الأخرى ـ ينوه بالحقيقة النبوية

التي يعدها المسلمون ذات رابطة عضوية في التاريخ الديني والإنساني، كما يعدونها القضية الأولى في الفكر الاعتقادي السليم.

ويبدو لي أن إنكار معظم المستشرقين هذه الحقيقة لا يطمس وهج الحق، ونصاعة الدين وحسب وإنما يحاولون بها تجزئة المسلمين، وتفتيت أفكارهم، والنيل من معتقداتهم، كوسيلة من وسائل التنصير أو العلمنة أو هما معاً.

٢ ـ تنوع النظرات في الفروع واختلافها:

إن اتفاق معظم المستشرقين على تجريد الرسول من الوحي الإلهي جعلهم ينزعون من منزع واحد، وينطلقون من إطار مشترك، هو الإنكار والجحود، والتدليل عليه بألوان شتى من الأوهام والأباطيل.

ولكن جحودهم وإنكارهم كمنطلق مشترك، وقضية مسلّم بها لم يغنهم عن تنويع نظراتهم واختلاف مواقفهم وتعارضهم أحياناً كثيرة بين بعضهم بعضاً.

أ ـ قلة منهم تشيد بفضائل الرسول الإنسانية والإصلاحية والزعامية وأحياناً النبوية وهؤلاء يتفاوتون في تقصيهم هذه الفضائل والتركيز على بعضها دون الأخرى وبخاصة تلك التي لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بالنبوة.

وفي مقدمة هؤلاء: (آتين دينه) المسلم، والفرنسي الأصل في كتابه: محمد رسول الله، و(ليوبو لدفايس) النمساوي الأصل الذي عرف بـ محمد أسد، في كتبه ومنها: الإسلام على مفترق الطرق ـ والطريق إلى الحجاز. . ويتبع هؤلاء: (ر. ف، بدلي) الإنكليزي في كتابه: الرسول، حياة محمد. وواشنجتون أرفنج في كتابه: حياة محمد بغض النظر عن الملاحظات والتعقيبات عليهما.

ب ـ الغالبية الكثيرة منهم يرفض مواقف التجرد ويندفع وراء رواسبه الكنسية أو الاستعمارية الفكرية ويحلل الصورة المحمدية من واقع تفكيره

وتفكير قومه. وهؤلاء أيضاً يتفاوتون، وكثيراً ما يختلفون ويتعارضون في تحليلاتهم واستنتاجاتهم.

فيقذع أو يفحش بعضهم بنسبة الرسول إلى الشهوانية الشبقة: في طعامه وجنسه، وتعشقه سفك الدماء، بينما يلبس بعضهم الآخر هذه الصفات وغيرها أردية البحث والموضوعية فينسب الرسول إلى السوادية في المزاج، والتعاطف مع اليهود، والابتعاد عن آداب الجهاد، وقصر بعثته على العرب دون سواهم. . . . .

كل ذلك يعرضونه على الطريقة التشكيكية وبالروايات المرجوحة، منطلقين من أفكار ومبادىء مسبقة، مستعينين بالمصادر التبعية غالباً والتي تعتمد على دراسات اللاحقين بالسابقين منهم دون الرجوع إلى المصادر العربية الأمينة.

وعلى الرغم من أن الباحثين المسلمين دحضوا كثيراً من هذه الشبهات والمفتريات. ومن ضمنها هذا الكتاب ـ فإن الأغلاط المنهجية والفكرية والخطيئات والتزيدات والتزييفات الاستشراقية أكثر من أن تحصى.

وفي هذا (الكتاب) ما يزيد عن ثلاثين غلطاً وخطيئة وتزييفاً يبرأ المنصفون عن أمثالها. كما أن فيه فهرسة للمؤلفات التي صنفتها ضمن ما كتب عن الرسول، وقد عدها بعضهم مراجع اعتمدوا عليها وهي لا تستحق إعادة أسمائها والتعليق عليها.

وربما كان من أبرز تهافتهم فيها واسفافهم أحياناً بخصائصها ما جاء في تخبطاتها مع أنفسهم أحياناً وتناقضهم في الفكرة الواحدة أحياناً أخرى، ومن ثم تخبطاتهم وتناقضهم في العديد من الأخطاء مع بعضهم بعضاً.

وإذا دلت مثل هذه المواقف النقدية على حرية الفكر، وفردية القول والرأي فإن الغرض ـ فيما يبدو لي ـ إرباك المثقف العادي مسلماً كان أو غير مسلم بين طرفين فكريين متعارضين كل منهما يحاول التعريض وأحياناً النيل

من (الرسالة) و(الرسول) والكتابة عنهما من وجهة نظره وحسب أهوائه ومزاجه.

وهو إرباك ثقافي مقصود لا يمكن تقديره ولا استنتاجه من حقائق ومصادر واحدة وإنما هو محاولاتهم تقسيم المثقفين إلى أرتال من أعداء الإسلام، كل منهم يؤمن بفكرة مشبوهة ضد الرسول بالطرف الذي عرض له الكاتب.

لذلك فهو ضلال فكري منهجي وإضلال هدفي غرضي، وضياع للقيم الفكرية في متاهات الصليبية والتلمودية والاستعمارية الفكرية المغربة والغربية.

وربما كانت أغرب هذه الضلالات الأصل منها والفروع، وأشدها حماقة وحقداً، وأعمقها افتراءً وجحوداً، اتفاق معظمها إن لم يكن جميعها بين جيلين متباعدين في الزمان والمكان والخبرات العلمية والدراسية؛ جيل المشركين واليهود والنصارى إبان العهد النبوي والدعوة إلى الإسلام في مكة والمدينة، وجيل المستشرقين من العلمانيين والمتعصبين في الأزمنة الحديثة والمعاصرة في أمصار العالم ومدنه ومدارسه.

فلا يكاد الباحث يفرق بينهما من حيث الأفكار والهجمات المحمومة إلا بقدر ما بينهما من اختلاف في الأشخاص والأسماء والبيئات.

وسأورد أهمها، لا لنقول: إن التاريخ يعيد نفسه في مثل هذه الأحوال، وإنما لنقول؛ إن العداء الفكري العقدي الحديث له بداياته العنيفة الماكرة حاولت وقف المد الفكري الإسلامي الأصيل، وتحاوله الآن، ولكن هيهات. . .

أ ـ فقد وصف (سبرنجر) الرسول بالصرع، ونبوبات أقرب إلى الجنون، ونعى القرآن ذلك على العرب بقوله: ﴿وَقَالُوا يا أَيُّهَا الَّذِيْ نُزِّلَ